**المحاضرة الاولى مقياس علاقات الغرب الاسلامي مع السودان الغربي**

مع دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا؛ بدأ يتسرّب تدريجيّاً إلى أعماق القارة الإفريقية، وتوطدت الروابط بين شمال الصحراء الإفريقية وجنوبها، وتشعّبت العلاقات لتشمل مجالات متعددة، وتوسّعت بمرور الزمن أسباب تمتينها.

ومن ثمّ ارتبط المغرب الأوسط بالسودان بصلاتٍ وثيقة؛ مستفيداً من عدّة عوامل مساعدة، وكانت حواضر كلتا الضفتَيْن هي الحلقة الأبرز في ذلك الارتباط؛ بوصفها الفضاء الرئيس لبوتقة التدفقات الفكرية والاجتماعية والدينية، وغيرها.

فما هي إذاً أهمّ المجالات التي غطتها العلاقات بين حواضر المغرب الأوسط ونظيرتها السودانية، خلال العصرَيْن الوسيط والحديث؟ وما أبرز ملامح الإشعاع الحضاريّ بينهما؟

**أولاً: أوجه العلاقة التي نظمت حواضر المغرب الأسلامي بحواضر السودان الغربي:**

**1 – اجتماعيّاً:**

يمكن اعتبار العلاقات الاجتماعية أمّ العلائق بين المغرب الأوسط والسودان، فهي الأقدم في الامتداد والتداخل، خصوصاً بين الأجزاء الشمالية وعمقها الصحراوي، وذلك بحكم أنّ قسماً كبيراً من القبائل الأمازيغية استوطنت الفضاء ين معاً منذ أقدم العصور وحتى بعض المجموعات العربية فيما بعد، ومع وصول الإسلام إلى المنطقة تمّ تذليل صعوبات اختراق الصحراء على قساوة ظروفها، ولا شك بأنّ العامل الاجتماعيّ والديموغرافيّ كان حاسماً في تسهيل التواصل بين شمالٍ بات إسلاميّاً، وجنوبٍ كان ما يزال على سمته الوثنية القديمة.

ولا يتوقف دَوْر الجانب الاجتماعي في التقارب الناتج عن وحدة العِرْق واللغة، بل يتجاوز ذلك إلى تقارب الطباع والفكر.

وأدّت العناصر المسوفية دَوْراً بارزاّ في هذا الصدد، حيث اختصّت بأدلاء الطرق الذين كشفوا مجاهل المسالك الصحراوية للمتدفقين من الشمال نحو السودان.

**2 – العلاقات الاقتصاديّة:**

هناك مؤشراتٌ عديدةٌ تدلّ على: أنّ الروابط الاقتصادية بين السودان الغربيّ والأوسط والكيانات الإسلامية بشمال إفريقيا عريقةٌ جدّاً، تكاد تطابق تاريخ الوصول العربيّ إلى المنطقة، وأدّت هذه العلاقات إلى ميلاد شبكةٍ كثيفةٍ من المسالك التجارية بين الشمال والجنوب عبر المجابة  (الصحراء) الكبرى.

وبرغم التغيير المستمر للطرق التجارية، وتباين أهميتها من فترةٍ لأخرى، حسب عوامل مرتبطة بواقع الضّفتَيْن؛ تبعاً لقوّة الدول الحاكمة، ومدى قدرتها على تأمين تلك المسالك؛ فإنّ المغرب الأوسط، ومراكزه الحضرية، كانت له حصّةٌ مقدّرة من الطرق المفضية إلى السودان، خصوصاً إبّان قيام إمبراطورية مالي، ومن بعدها صنغي؛ حيث تراجعت أهمية المسالك الغربية المفضية إلى إمبراطرية غانة لصالح المسالك الداخلية، ومنها المحور المؤدي إلى مدينة «ولاتة»، ومنها إلى مختلف مدن السودان.

ويُفهم من كلام ابن بطوطة أنه، بالإضافة إلى هذا المسلك، كان هناك طريقٌ يصل «توات» بـ «تكدا» كما ارتبطت تلمسان بالسودان عبر توات؛ عبر طريقٍ يصل إلى أغدس , لكن هذا المسلك كان يتعرّض لبعض الصعوبات، أهمّها: إقرار الأمن، لذلك انتعش زمن الدول الكبرى، وتأثر بوصول القبائل الهلالية، ثم استعاد بعض عافيته في ظلّ حكم بني عبد الواد

ومن ثمّ؛ يمكن اعتبار المسلك الصحراوي الأوسط، الذي يمرّ عبر «ورقلة» أهمّ المسالك الصحراوية التي كان يسيطر عليها المغرب الأوسط، وعبرها ينفتح على السودان.

وتبوأت مدينة «تيهرت» غداة تأسيسها مكانة قاعدة المغرب الأوسط وأهّلها موقعها لأن تستقبل البضائع «برّاً وبحرّاً، وغرباً وشرقاً، وشمالاً وجنوباً» وأن تصبح «ملتقى تجاريّاً مهمّاً بين المغرب الأوسط، وبلاد السودان، والمغرب الأقصى، والأندلس، وإفريقية» واستفادت من توثّق علاقة الرستميّين التجارية ببلاد السودان «ابتداءً من زغاوة شرقاً حتى ساحل غانة غرباً، لكن هذه العلاقات توطدت بشكلٍ أساسيٍّ مع شعوب السودان الأوسط، وخاصّة مع الكانم» كما ضمنت «تيهرت» وصول السلع السودانية إلى مدن إفريقية  (المغرب الأدنى).

والأمر نفسه ينطبق على «قلعة بني حماد» إبّان اتخاذها عاصمة لإمارة بني حماد الصنهاجية؛ إذ كانت تقع على طريقٍ للتجارة الصحراوية يمرّ عبر ورقلة بينما ارتقت مدينة «بجاية» في العصر الموحدي إلى صفة «مدينة الغرب الأوسط» يفد إليها «تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق» .